التواصل الإجتماعي ...

... البُعْدُ المفقود في منظومتنا الثقافية

بقلم / مسعود فلوسى

في اي مجتمع متحضر تحظى العلاقات الإنسانية بالقسط الأكبر من العناية، وتنال غاية الإهتمام؛ خاصة عند التخطيط لتنفيذ أي عمل اجتماعي يكون له تاثيره في واقع المجتمع وشرائحه المختلفة . وذلك لكون العلاقات الإنسانية هي المؤشر الدقيق الذي يقيس درجة تماسك افراد المجتمع وترابط قطاعاته وشرائحه المختلفة، وهي ايضا المرآة التي تعكس جوانب الضعف في المجتمع إذا ما تعرضت شبكة هذه العلاقات للتمزق والإنفصام . اما في المجتمعات المتخلفة والتي تعاني الفشل والإنهيار على جميع المستويات، فإن العلاقات الإنسانية فيها هي آخر ما يمكن ان يوضع في الحسبان أو يلقى الإهتمام، بل إنها كثيرا ما تكون هدفا لبرامج ومشاريع يراد من ورائها تمزيقها وتخريبها عن قصد او غير قصد، الأمر الذي يؤدي إلى إنفصام هذه العلاقات حتى تصل في بعض الأحيان إلى درجة لا يعرف فيها الأخ أخاه ولا الإبن أباه ... ثم إن المظهر الأهم الذي يجلي بدقة سلامة هذه الشبكة وتوطيد هذه العلاقات، أو تمزق تلك الشبكة وانفصام تلك العلاقات؛ هو ما يمكن ان نسميه (التواصل الإجتماعي) الذي نقصد من ورائه التعبير عن شدّة التماسك بين أفراد المجتمع؛ بحيث لا يكون لأي مؤثر مهما كانت شدته اي اثر في هذا التماسك، ونعني به إضافة إلى ذلك التنسيق الدقيق والتناسق الدائم بين نظم المجتمع المختلفة التي بيدها تسديد مسيرته وتوجيه حركته، لتعبر في النهاية عن خصيصة ثابتة لمجتمع متحضر تسوده (اخلاق حضارة) .

أزمة ثقافية شاملة

إن هذا التواصل هو ما نفتقده في حياتنا الثقافية الحاضرة (على اعتبار أن الثقافة هي أسلوب حياة؛ أي الأسلوب المشترك لمجتمع بأكمله من علمائه إلى فلاحيه . كما يقول مالك بن نبي في كتابه مشكلة الثقافة / ص 138).. فنحن نعيش أزمة ثقافية خانقة كان من أبرز إفرازاتها غياب هذه القيمة الحضارية الرفيعة التي تعبر أصدق تعبير عن درجة الوعي الإجتماعي والرقي الحضاري، وبغيابها عن حياتنا الإجتماعية غابت معها أسمى معاني الرحمة والإخاء والإيثار والوفاء بالعهد ولين الجانب والصدق والورع والتقوى وغيرها من الأخلاق الإجتماعية والفردية التي جعلها الإسلام من شروط الصلاح والفلاح والخيرية في الإنسان . ولا شك أن مجتمعا تغيب من معاملات أفراده كل القيم والأعراف الخيرة الجميلة هو مجتمع أقرب إلى الحيوانية منه إلى الإنسانية، وهو مجتمع تسوده (علاقات الإفتراس) و (علاقات التنافس) أكثر من غيرها من أنواع العلاقات، وهي تعبّر بجلاء عن مدى التردي القيمي والأخلاقي الذي يقع فيه طرفاها، والذي يجعل من كل واحد منهما وحشًا كاسِراً هَمُّهُ الوحيد الإنقضاض على الطرف الثاني والقضاء عليه بأية وسيلة ممكنة . وقد ابتلى مجتمعنا بظاهرة مميزة تمثلت في بروز كل إفرازات تراكمات متوالية من مختلف مظاهر التمزق الإجتماعي التي ورثنا خلفياتها عن قرون التخلف والإنحطاط الثقافي ثم الإستدمار الحضاري الشامل بعد ذلك . وتمثلت هذه الإفرازات في ظهور (ما نشاهده – اليوم – من مظاهر الأقصاء والإلغاء للآخرين من طرف من بأيديهم مقاليد الأمور، وكذا ما يحدث من أنواع التدمير الذاتي التي يشهدها مجتمعنا والتي جعل أبناؤه من أنفسهم أدوات لها، دون التفكير فيما قد ينجر عن ذلك من إفناء للذات الإجتماعية واستنزاف متواصل لطاقاتها وجهود المخلصين من أبنائها .

إن (لاَ شُعُورَ) الكثيرين يختزن شحنة هائلة من الأفكار السيئة تجاه المجتمع؛ فهو يتمنى له الخراب والدمار، لأنه لم يستطع إشباع رغباته والحصول على متطلباته في ظله . وإن (صُدُورَ) الكثيرين لتنوء بأحمال ثقيلة من الحقد والبغضاء والكراهية لأشياء كثيرة وجهات عديدة يجهلون هويتها ونوعها، وكل هذه المكبوتات والمشاعر الخطيرة يتحينون الفرص السانحة للتنفيس عنها وبعنف مبالغ فيه كثيرا ، دون أن نعلم جميعا أننا نحطم أنفسنا ونثير ضحك أعدائنا المتربصين بنا علينا، فقد كفيناهم شرَّ حربنا بما نفعله نحن في أنفسنا وضد بعضنا .

ويمكن أن نلاحظ صورة مصغرة لغياب القيمة الحضارية الرفيعة (التواصل الإجتماعي) عند كل مناسبة تقبل علينا؛ حيث ترتفع أسعار الملابس والموادّ الغذائية بنسب خيالية تفوق حدود المعقول؛ حتى يبدو الأمر وكأنه عملية انتقام يعلنها التجار ضد الشرائح الأخرى للمجتمع، أو كأنه استغلال لفرصة ربح نادرة في أيام محدودة وكأنهم لا يربحون في غيرها أبدا .

إن الشعور بالإنتقام على هذه الطريقة يكاد يطغى على حياتنا، حتى أننا نكاد نقول أن علاقاتنا الإنسانية قد تحولت إلى نوع من (تصفية الحسابات) بين أفراد مجتمع واحد يدينون بدين واحد ويعودون إلى أصل واحد . والحقيقة إن الإنسان ليقف مشدوها حائرا أمام بعض الظواهر الخطيرة التي بلغت الغاية في الإنحطاط الحضاري والتدني

الأخلاقي، بحيث يجد نفسه عاجزا تماما عن تصنيفها في إطار معين أو ضمن منظومة معينة .

نتيجة منطقية

كل ذلك نتيجة منطقية – بل ربما حتمية – لأزمة حضارية وثقافية شاملة أوقعنا فيها تنكرنا القديم المتجدد لديننا وعقيدتنا، والذي تطور فيما بعد ليصبح تنكرا من فئات معينة توالت على قيادتنا وفرضت علينا أن نساير أهواءها ونزواتها ونطبق الأفكار والإيديولوجيات التي نستوردها في كل مرة من أعدائنا . وقد أدى ذلك إلى حدوث صدمات اجتماعية متوالية عرقلت مسيرة أمتنا وأخرتها قرونا عديدة، بل عادت بها على طريق التخلف والإنحطاط خطوات أخرى؛ فتوقفت التنمية الحضارية بصفة شاملة، وتحول الفرد من شخص إجتماعي فعال له تأثيره في الواقع إلى شخص أناني انعزالي يكاد ينطق بلسان الحال قبل لسان المقال : (لا تهمني إلا خاصة نفسي ولا شأن لي بالآخرين) وأصبح همه الوحيد النجاة من المضايقات والمعوقات، ثم الحصول على رغباته ومتطلبات حياته مهما كانت وسيلته إلى ذلك . وتلك قمة التخلف الحضاري والتردي الثقافي الذي بلغه مجتمعنا وجعله يتحول من مجتمع قويّ متماسك يُنظر إليه بعين الهيبة والإحترام، إلى مجتمع ضعيف متهالك يُنظر إليه بعين الإحتقار والإزدراء .

مشاهدة من عمق الأزمة

والواقع أنه إذا أردنا عرض مظاهر الأزمة وصوّرها الرهيبة في مختلف القطاعات الإجتماعية، إننا لا نعدم أن نجد صورّا فظيعة لما يحدث من فئات إجتماعية أتيح لها أن تطفو على سطح النسيج الإجتماعي وأن يصبح لها تأثيرها البارز فيه .

* فعلى مستوى الأسرة ـ مثلا ـ؛ يكاد ينعدم (الحياء) بين الوالدين والأبناء، نتيجة لتأثيرات مختلفة أبرزها التلفزيون والبارابوليك اللذين استطاعا القضاء على هذه القيمة الخيرة ومحو آثارها بالتدريج من النفوس ثم تحويلها – بالتدريج أيضا – إلى (عقدة) يمجها الكبار والصغار ويعتقدون وجوب التحرر منها واطراحها . وليت الأمر توقف عند هذا الحد، بل إنه تطور ليصل إلى درجة غير معقولة أصبحنا معها نقرأ في الجرائد، أو ربما نرى بأعيننا أو نسمع بآذاننا عن جرائم أخلاقية يرتكبها آباء في حق بناتهم، أو شباب مع أخواتهم، وبالرغم من كل ذلك فلا يزال الكثير من الناس لا يصدقون أن وسائل الإعلام هي التي فعلت فعلها الخبيث في عقول الناس وقلوبهم وأوصلتهم إلى هذه الدرجة من الإنحطاط والسفالة الأخلاقية .

* وعلى مستوى العائلات والقرابات؛ لا نكاد نجد أثرا لشيئ اسمه في ديننا (صلة الأرحام) .. هذه القيمة التي حضّ عليها ديننا الحنيف وجعل تركها من الكبائر، أصبحت – اليوم – في خبر كان، ولم يعد بإمكان الإنسان أن يؤديها حتى وإن أراد، لأنه سيجد نفسه غير مرغوب فيه ولا في زيارته أو صلته، مما يضطره إلى عدم التفكير في زيارة أحد من أقاربه حتى لا تواجهه مختلف أنواع الكنايات والإستعارات التي تخدش فؤاده وتدمي إحساسه .

* وإذا انتقلنا إلى جانب آخر؛ ذلك الذي يتعلق بموقع الفقراء والمحرومين في مجتمعنا؛ فإننا مهما حاولنا أن نصف عمق المعاناة وأنواع الآلام التي يعانيها هؤلاء المساكين ما استطعنا إلى ذلك سبيلا .. إذْ ما عسانا أن نقول فيمن يفترش الأرض ويلتحف السماء ومع ذلك تجده يتعفف عن مد يده للناس بطلب معروفهم أو صدقاتهم . وقد وصل

مجتمعنا في هذا الجانب إلى درجة ظهرت فيها الطبقية بجلاء، وأصبحنا نلاحظ البون الشاسع الذي يفصل الطبقات المترفة عن الطبقات المحرومة؛ تخمة تفوق المعقول في جهة، وحاجة ماسة لا تطاق في جهة ثانية، لقد أضحت هذه المظاهر حقيقة مرة يلاحظها كل الناس، ومع ذلك نجد أنفسنا عاجزين عن فعل شيئ نواسي به محروما، أو أن ندفع به ثريا متخما إلى البذل والعطاء . وأغلب الأثرياء - إلا من رحم الله - مولعون بتقاليد الرياء وبمواطن الشهرة؛ حيث يبذلون الأموال الطائلة من أجل أن تذكر أسماؤهم في المجامع والسجلات والتيليطونات، في حين تجد منهم مَنْ إخوانه وأشقاؤه وأقاربه وحتى والديه يعانون العري والجوع والشقاء .

أسباب

ولست هنا بصدد استعراض الأزمة - فقد سبق لي وأن استعرضت جوانب واسعة منها في مقال مطول عن (علاقاتنا الإنسانية في ضوء الإسلام من التآلف إلى التفكك والتصدع) ونشرته جريدة (العقيدة) في عددها الثاني والثلاثين - بقدر ما أردت أن أبين خطورتها، لا من باب بعث اليأس في النفوس وإغلاق أبواب الأمل أمامها، ولكن من باب استنهاض الهمم وحملها على التفكير في أسباب هذه الأزمة وعللها العميقة، ثم النهوض لتغيير الأوضاع والأحوال بما تيسر من وسائل وإمكانيات .

ويبدو لي - والله أعلم - أن أول أسباب هذه الأزمة؛ هو التصدع الذي أصاب منظومتنا الثقافية واستمر معها حتى أفقدها روحها ومعناها وحتى جعلها تعاني من مرض اجتماعي مزمن كبل نشاطها وأعدم فعاليتها وفكك أوصالها وشرد أبناءها، لدرجة يمكننا معها أن نقول أن أمتنا تعاني اليوم من فقدان كامل لمنظومتها الثقافية .

وثانيها : فشل مشاريع النهوض الثقافي التي حاول أصحابها النهوض بالأمة والإنطلاق بها من جديد، فرغم التضحيات العظيمة التي قُدّمت والجهود اللامتناهية التي بذلت، فإنها لم تستطع أن تغير من واقع الأمة شيئا ولا أن توقف مسيرة انحطاطها المستمر . ولعل السّرّ في ذلك إنما يعود إلى عجز هذه المشاريع عن إدراك العلة التي تنخر جسد الأمة وتحول دون تحررها من قيودها الذاتية المزمنة، وكذا إلى العفوية التي طبعت أغلب المشاريع وحالت دون اعتمادها على تخطيط ودراسة دقيقة لأسباب أزمتنا الحضارية .

ثالثها : غياب ما يمكن أن نسميه (علوم الإحياء) عن أداء دورها في تسديد مسيرة الأمة وإعداد أفرادها عقلا وروحا، إعدادا يمكنهم من معرفة واجباتهم تجاه أمتهم، والتي تتعدى مجرد حمل همومها والدفاع عن أرضها وحدودها، إلى العمل على التواصل الدائم مع إخوانه من أبنائها، والسعي المتواصل لإفادتها والترقي بها على درجات النبوغ العلمي والرقي الثقافي والحضاري . وقد غابت هذه العلوم نتيجة غياب الحضارة التي تصنع العلماء وتكونهم، والذين أصبح من الصعب جدا تكوينهم وإعدادهم، حتى عاد ظهور عالم مجدد لأمر الدين في عصر من العصور يعد فلتة نادرة وطفرة عابرة يندر تكرارها واستمرارها .

قصور برامج النهوض

وإذا أعتبرنا أن هذه الأسباب قديمة ولا يمكن معالجتها نظراً لمرور حيزها الزمني من قرون عديدة، فإن ما يحدث اليوم لا يختلف عن سابقه في شيئ؛ فأغلب البرامج والمشاريع المطروحة للنهوض بالأمة

ومحاولة تغيير واقعها إلى ما هو أفضل، لا تزال بعيدة عن أن تمس الجوانب العميقة الدقيقة للأزمة، ولم تضع بعد خطة للمنهج الذي يمكن أن تتبعه في حلها، وكُلٌ منها اكتفى بالنظر إلى الأمة من جانب واحد دون اعتبار الجوانب الأخرى أو أنها اعتبرتها ولكن بطريقة ثانوية . وقد كان مفروضا في هذه المشاريع أن تُوضع على نسق يقيها من التأثر بمعطيات الواقع ومستجداته ويمكنها من التكيف معها في كل مرة، ولكن الواقع أن هذه المشاريع كانت في كل مرة تخرج عن منطلقاتها وتحيد عن خط أهدافها وغاياتها البعيدة إلى التعلق بأهداف وغايات وهمية قريبة .

وذلك ما كان يؤدي في كل مرة إلى إصطدامها بتحديات قوية تفوق طاقتها فتحد من فعاليتها وتدعها شبحا بلا روح، مما كان ينجر عنه في كل مرة خيبة أمل جماهيرية كبيرة، يتبعها يأس قاتل من كل مشاريع النهوض والإنطلاق الحضاري .

وإذا استثنينا بعض المبادرات التي لا تزال في حاجة ماسة إلى العون المادي والمعنوي، فإن أغلب المشاريع – التي لا تستحق إسم المشاريع في الحقيقة – تظل دون المطلوب، وتبقى في حاجة إلى أن تراجع منطلقاتها وأن تجدد بدقة غاياتها حتى لا تختلط أمامها الأهداف ثم لا تستطيع بعد ذلك أن تحقق منها شيئا . وقد دلت كل التجارب السابقة على أن الأهداف والغايات التي تتوخاها أغلب هذه المشاريع يظل تحقيقها بصفة تغييرية منهجية صحيحة أمرا يكاد يكون مستحيلا في غياب إعداد شامل للفرد إعدادا تربويا منهجيا يستهدف بناء شخصيته بناءا سليما تكون نتيجته إنسان صالح مصلح مستعد لأن يبذل حياته وكل ما يملكه من غال أو نفيس في سبيل المبدأ الذي يؤمن به ويسعى إلى العيش في ظلاله . وذلك – طبعا – يحتاج إلى زمن طويل لا يمكن تحديده بأقل من عدة عقود من السنين، ويقتضي استنفار طاقات الأمة كلها في شكل مؤسسات مؤطرة هادفة تعمل على جميع المستويات؛ الإجتماعية والتربوية والثقافية، ويخطط منهجية دقيقة تراعي ترتيب الأولويات وتقديم الغايات والمصالح حسب أهميتها .

وتبقى التربية الفردية والجماعية والإجتماعية بمختلف أنواعها ومجالاتها وأساليبها؛ السبيل الأسلم والأفضل لتحقيق هذه الأهداف في طريق النهوض بالأمة في انطلاقة حضارية شاملة تتيح لها العودة إلى رئاسة ركب الإنسانية وقيادتها على درب الخير والهدى والصلاح وإنقاذها من التردي الأخلاقي والحضاري الذي وقعت فيه رغم ترقيها المعرفي والرفاهي . ويوم أن يتحقق ذلك الهدف يحق لنا – حينئذ – أن نطمع في منظومة ثقافية متماسكة مظهرها البارز قيمة اجتماعية حضارية رفيعة إسمها (التواصل الإجتماعي) .